الاحتفال بالنبوغ

(ذهبت الكاتبة النابغة الآنسة ماري زيادة (مي) مع والديها الكريمين لقضاء فصل الصيف في ربوع لبنان فرحّبت بهم جرائد سورية ولبنان اعظم ترحيب . وكان كثيرون قد دعوها لزيارة وطنها الاول فاحتفلوا بها حيث حلّت ولاسيما في سوق الغرب وعيناب وزحلة وبعلبك ودمشق وبيروت وكان ارباب الاقلام يقابلونها فيها بأخطب والقصائد مثبتين بذلك ان في الشرق نهضة فكرية بعيدة المدى ومقاماً للادب رفيعاً في النفوس. وقد بلغنا ان احد الادباء عُنِيَ بجمع كل ما قيل في تلك الحفلات لينشره في كتاب واحد. ولقد كانت الآنسة مي تجيب المحتفلين بها بما يعهد فيها من بلاغة العبارة وسعة التخيل وحسن التعليل . وقد وقفنا الآن على خطبتين من خطبها الواحدة القتها في حفلة دمشق والثانية في حفلة الجامعة الاميركية في بيروت فنشرناها هنا مع الشكر الجزيل لها وللذين اكرموها)

الاولى كلمتها في حفلة دمشق

حلمتُ في هذه المدينة احلام الطفولة الاولى . ولما كنتُ هناك في وادي النيل أُغمض عينيَّ لاستعيد ذكرى فردوس طفولتي كنتُ أُدرك انَّ من عرف دمشق صغيراً حفظ كيانهُ من جمالها اثراً ليس يمحى . ثم علّلتُ النفس بالعودة هذه السنة لاسمع مدير انهارها ، مستأنسةً بعلف اهلها ، مراجعةً تاريخها الطويل في الشوارع والحجارة والابنية ، مستوحيةً في الاخربة والآثار روح العظمة الامويَّة ومجد صلاح الدين

وها انا ذا في دمشق ، ايها السادة والسيدات ، فاذا بالمياه قد اضافت الى حكايتها الدهرية حديثاً سريًّا طريفاً . ها انا ذا في دمشق وكأنَّ الاشجار تخبرني عما شهدتهُ السبلُ من تفجُّع وعمَّا افلتتهُ الغصون من رجاء

ها انا ذا في دمشق وكأني أبصر في الاخربة والآثار روح العز القديم تتململُ لترى العجوبة التجدُّد في الشعب الواحد المقيم في المكان الواحد . ها انا ذا في المدينة الاموية الكبرى ، عاصمة الملوك والخلفاء والفاتحين ، حاضرة هذه البلاد التاريخية وآية الجمال في الصحراء ولكنني اشعر بأني خصوصاً في دمشق الجديدة ،

في الطبيعة والفتاة التي تستجمع قواها بعد الجراح والآلام ، وتتحفز للنهوض والصعود نحو قمة الارتقاء . ولئن تعاون الكرام منكم وحبّ تشجيع العلم في جعل هذا المساء لي مبدأ ، فقد ارتسمتُ فيه رموزاً طالما تقتُ الى حقيقتها :

في أنحاء الاندية أرى رمزاً لاتحاد الامة . وفي ارتفاع صوت المرأة قرب صوت الرجل أرى دليلاً على تسنّم الكرامة فيها واستعداد الرجل لمساعدتها والاعتراف بحقوقها . وفي التفاف المصطفي والعبقري على الترحيب بأخت سورية آتية من بعيد ، أرى عنواناً لمحو فروق المذاهب وبشارة الوحدة القومية

هذا مظهر من وطنيتكم السامية ، وهذا هو الذي يوحي اليّ ان اخاطبكم بما يجول الساعة في نفوسكم : انكم عائلة فرقّوها بترقية المرأة وإصلاح الرجل . لكم صناعة . تجارة وزراعة فحسنوها ما استطعتم ولا تيأسوا امام التشل المهذّب . لكم معامل عظيمة فكونوا لها اعلاماً بتهيئة مستقبل عظيم . لكم فنّ شرقي ، وروح شرقي ، ولغة شرقية فحسنوها وروجوها — لا تعصباً ولا تعنتاً — بل ليكون لكم ان تنبسوا في متحف الثروة الانسانية . لكم دين وعقيدة فاطلقوا الحرية فيهما بين الخالق والمخلوق ، ودعوا المؤذنين والنواقيس ترفع نحو الخالق النشودة الخلود . بينما انتم ترددون النشودة الخالدة قائلين : الله اكبر ونحن ابناء قومية واحدة

هذه الكلمات اودعكم ، ايها السادة والسيدات . شاكرة لأهل دمشق ما لاقيته عندهم من لطف الضيافة ، شاكرة للاندية الكريمة هذا الاجتماع الفخم الذي ضمّني وجمهوراً كبيراً من اخواننا واخواتنا . شاكرة للخطباء والشعراء ما جادت به قرائحهم الوقادة في تجميل ذكري . شاكرة للصحافيين والادباء كل كلمة طيبة كتبوها عني او وجهوها اليّ . وكنت اودّ ان اشرف ووالديّ بتأدية الواجب لجميع الذين تفضلوا وزارونا من سادة وسيدات ، ولكن الوقت قصير يحول دون قضاء هذا الواجب المستحب . فارجو قبول شكري الحار ، واسفي ، واعتذاري لأن سفرنا قريب جداً

اودعكم مرة اخرى ايها السادة والسيدات . بالامس كنت اذا ذكرت دمشق تصورتها طاقة خضراء وسط الصحراء يتخللها هدير الانهار . اما الغد فاذا ذكرت فيز دمشق تصورتها تلك الطاقة الخضراء وسط الصحراء يتخللها هدير الانهار

وقد تجلّى فوقها قلب دمشق الفتاة الذي خفقتْ الليلة يتأجّج ناراً ويتألق نوراً فلتحيَ دمشق الفتاة ! !

الثانية كلمها في جامعة بيروت وموضوعها

كولمبوس وفتح اميركا

هو ذا الرجل الذي يريد تحقيق ما لم يصبُ اليه احد. للناس جميعاً اطماع ومآرب: فهذا يسعى الى الثروة، وذاك يشوق الى الحب، وذلك يرغب في السؤدد والتفوق. القائد يبغي فتح المدينة ظافراً، والملك يسرّهُ التفاف الرعايا حول اريكته، والعالم يتفرّغ لمعالجة الذرّات والعناصر، والمكتشف يودّ استجلاء سرّ من أسرار الطبيعة. أمّا هذا الرجل فقد حلّق فوق كلّ غارٍ وكلّ عظيم، لانهُ انما يريد ان يوجد عالماً جديداً

هو فقيرٌ فارغ اليد، يُنظَر اليهِ بالريبة والتحذُّر لأنهُ غريب في قومهِ وعشيرتهِ. هو شاذٌ مجنون لا يشبه الآخرين. ما ذُكر الاّ ارتسمت على الشفاه ابتسامة التأفف والاستخفاف فرجمهُ السافلون باقذار سفالتهم، ولوّث اسمهُ الخاملون باوحال خمولهم.

اما انت ذو الفكر النبيل والنظر الثاقب، فتقدّم تجد ان هذا الرجل ليس لهُ من بعض المعدمين الوقاحة والتطاول، ولا من الآخرين المذلّة والمسكنة. في ذلك الوجه تدركُ إدراكاً مبهماً معنى العظمة والعبقرية. وعلى تلك الجبهة ترى وسم المجد وقد حازتهُ علامة الحزن العميق الذي يرافق المجد في الغالب. وفي تينك العينين تبصر تعاقب التشتّت والاستقصاء بنظرة تتغلغل فيك وقد توحّد عندها غورُ الهاوية وشروقُ الوحي والرؤيا. ثم ينسى هذا الرجل ما يحيط بهِ من الناس والاشياء ناظراً إلى عمود النور السائر أمامهُ في الفضاء نحو ابعادٍ قصية، نحو شواطئ مجهولة، نحو خراب سيصير بهمّتهِ عمراناً مجيداً

هذا الرجل هو كولمبس، الذي قام يحقق ما لم تتخيلهُ كبار العقول على مرور اربعين قرناً. هذا الذي لا بيت لهُ لم تضُمّ تسعةُ القارات الثلاث. والبلاد والرياض والمروج التي فنيت فيها ملايين الآجال دهراً بعد دهر، وتكيّفت في رحابها

الحضارات والاديان والانظمة شكلاً بعد شكل — قد ضاقت بهذا الذي لا حسب له ولا نسب . فاستعمل فضلة من ذكائه للتقرّب الى ارباب بلاد اخرى ، فعطفت عليه ايزابلا الاسبانية ملكة قشتالة ، وجهزته بسفن ثلاث كاملة التجارة ، جاهزة المعدات ، فمضى نحو ذلك المجهول المنشود

***

نشر كولمبس شراعهُ على البحار ، بيد انهُ ما خطا الخطوة الاولى وراء عمود النور إلا وتكشفت لهُ الاخطار والمصاعب قبلهُ وصل الصينيون الى الحد الاقصى حيث تكاد تتقابل البراكين الاسيوية مع براكين اميركا الجنوبية . فوقفوا هناك ، ثم انقلبوا راجعين . قبلهُ كاد النرويجيون ينتهون الى الجهة الشرقية من اميركا الشمالية ، فوقفوا هناك ثم انقلبوا راجعين . قبلهُ وصل العرب الى سويداء الصحارى المائية ، فاحجموا امام بحر الظلمات ثم انقلبوا راجعين . أما هو الفرد الواحد فتابع المسير عنيداً . انعقدت لهُ الايام على صفحة الماء اسابيع ، وتكوّنت الاسابيع شهوراً دون ان تقع عيناهُ على أنس الشواطئ . فتابع المسير عنيداً . الامواه الكئيبة تحدق بهِ من كل جانب ، والوحشة الفيحاء توسع الآفاق حواليهِ ، وبحارة السفن يشكون ويتمرّدون ، وتنادي الاديهدّد بالموت جوعاً ويشير بالعودة . ولكن عزيمة الصنديد لم تتزعزع وظلت بصيرتهُ ترى ما كلت دونهُ الابصار . وفي وسط الغمّ واليأس بسمت يوماً ارضُ الميعاد وراء بحر الشواطئ وتراءى العالم الجديد للعالم القديم الآيس المترقب

***

ايها السادة والسيدات

ان حكاية اكتشاف اميركا على يد ذلك الجنوبيّ الباسل ، وما جرّ اليهِ ذلك الاكتشاف من تطوّر الحضارة والعمران . لهي حكاية الجهاد الفردي في الحياة وهي ارهف شاحذ لعزائم بني الانسان . يخيل الى من راقب سير المدنية ان تاريخ البشر وقف بغتةً ينتظر وقوع ذلك الحادث العظيم الذي ربط بين شاسع الامصار باسباب المواصلات السريعة فتوثقت العلاقات بين الشعوب ، وحصحصت صوَر مستحدثة للفكر والتفاهم والامل ، وجدّت النفوس في التحرّر من الاستئثار

الدهري . فانتصب الانسان حيال الخلق و تخيله نبيلاً يود ان يدرك ، يود ان يحب ، يود ان يتفانى لينتعش رئيساً

هناك ثروة موفورة لتوسع الصناعة والتجارة . هناك المعادن المختلفة والحجارة الكريمة وفصائل النبات وانواع الحيوان ما جمع في فلك نوح وما لم يتخيله نوح ولا بنوه

هناك عالم جديد بثروته المعدنية والنباتية والحيوانية ، جديد بتوقعه وجماله وجباله وبحيراته وشلالاته ، جديد باختلاط الشعوب المتجنسة بجنسيته النابضة بحياته وروحه ، جديد بحضارة تنشأ شيئاً فشيئاً هي مجموعة الحضارات السالفة وأبدع ما أتقنته يد البشر

تلك هي من اميركا المدنية المحسوسة . اما مدنيتها المعنوية فنفس حار وفكر مبدع ، ونبوغ عجيب ، وعطف رحيب . هناك مقدرة خاصة في جمع المال وتكثيره تضاهيها مقدرة بذله والتخلي عنه في سبيل المشروعات العامة . كأن امتزاج الشعوب المتعاونة على تكوين الروح الاميركية العامة قد ايقظ في صدر اميركا حب الانسانية باسرها ، حباً تناهى عندها وتسامى فادركت اكثر من سواها معنى اخاء الانسان للانسان . لذلك ما نزلت بالعالم كارثة الا كانت اميركا اسبق المساعدين ، ولا ظهرت في العالم فكرة جميلة او مبدأ سام الا كانت اميركا اسرع المروجين واخلص المؤيدين . ولا دعا داعي الاريحية والتعاون الا كانت اميركا اقرب البلدان الى وضع الاشياء في اماكنها فكانت اعقل المنظمين والمسعفين

وهي فوق ذلك بلاد الحرية . عرفتها كذلك الشعوب فأهدت اليها فرنسا التمثال المتحمسة تمثالاً من صنع برتولدي سنة ١٨٨٦ رفعته الولايات المتحدة في مرفأ نيويورك جاعلة منارتها في يده قبساً ينير العالم . ولكني لست ادري أهي اميركا التي نصبت في مدخلها تمثال الحرية ، ام هي الحرية التي اتخذت مرفأ نيويورك لها منبراً ، واقامت عليه من تمثالها خطيباً ينادي بالعلم والنهوض والاستقلال والاعتماد على النفس ، رافعاً يمينه وراء بحار الشمال والمياه المتجلدة والابعاد الشاسعة ، يبز من قبسه الانوار على الامم باعثاً اليها برسالة الحمية والرقي والرجاء

لنا نحن السوريين اخوان اعزاء يعيشون في ظل ذلك التمثال الرائع . بيد ان

اشبه بحرية تنير البعيد كما تنير القريب ، وهذه الجامعة الأ شعاع من ذلك القبس المحيي

المعاهد الاميركية العلمية غير قليلة في الشرق . الا ان لهذه بيروت أولوية الذكر لان لهُ في نهضتنا الفكرية الحديثة منذ نصف قرن اثرًا مباشراً من العجب من الزعماء الذين تثقفت منهم الاخلاق وتكيفت المدارك بتأثير ابناء اميركا الصالحين

أأحصي لكم اسماء اولئك الاميركان الافاضل الذين تخرَّجت عليهم طوائف رجالنا العاملين ؟ ما حاجتي الى ذلك وهم احياء بينكم بمآثرهم العلمية وحسناتهم التهذيبية ، احياء بينكم بالذين استلموا هذه الجامعة بعدهم فكانوا خير خلف لخير سلف . ولكن اذكروا اولئك العاملين الخالدين ! من هنا ايها السادة الطلبة ، من هذه الساحات حيث تلعبون وتتسابقون وتتنزَّهون أطلَّ بعض كبار رجالنا على العالم — من وراء الاشجار السندسية وحرج الصنوبر الصغير خلال افق البحر المنبسط امامكم بزرقته الرائقة ، أقبلوا على معترك الحياة . في هذا الجوّ ارتسمت لهم خطوط الآمال والاماني ، وعلى هذه المقاعد جلسوا قبل ان يصلوا الى مكانتهم العالية بين قومهم ، وفي هذه القاعات قاعات الدراسة ارتفعت اصواتهم التي وصلت بعدئذٍ الى اقصى حدود الشرق وامتدَّتها الى ربوع الغرب . خلال الكتب التي تدرسون ، والعلوم التي تقتبسون ، والكواكب التي ترصدون ، رأوا عظمة الكون وعجائب الخليقة فأحبُّوا تلك البلاد التي هم منكم ، وهذه الامة الشرقية التي هي امتهم ، واحبُّوا الاله المهيمن على الجميع بالنعم والعطايا . من هنا خرج صرُّوف ونمر فاصدرا مقتطفهما الذي ابرز مآثر الشرق ونقل لنا فلسفة الغرب وعلومهُ وابتكاراتهِ . من هنا خرج زيدان فهيَّأ هلالهُ وسلسلة كتبهِ في تاريخ الاسلام . هنا تيقَّظت عبقرية الشميّل وهبَّت مع عبقرية الافغاني والشيخ محمد عبده عاصفةً على خمود الشرق وجموده

اذكر هذه الاسماء الاربعة مفاخرةً بصداقة ثلاثة من اصحابها وهم الشميّل وصرُّوف ونمر . واكتفي بذكر هؤلاء مع علمي ان هناك عشرات سواهم حقيقون بالذكر لانهم باقون بالاثر . لاسيما الاساتذة السوريين من خريجي هذه الجامعة المحتفظين بلغتنا وروحنا الشرقية وديعة ينقلونها من جيل الى جيل . اني أتحنى امام

فضلهم جميعاً بمحافي امام استاذنا العلم جبران خليل جبران الذي اعلم انهم لا يرضون بسواهُ ممثلاً لهم في مثل هذا الموقف

***

وتألّق القبسُ يوماً في مرفإ الحرية فأرسل شعاعاً ابعد مرمى وأطول مدى فقررت هذه الجامعة ما سبقت به جميع المدارس العليا في هذه الربوع ففتحت صفوفها للفتاة مساويةً بينها وبين الرجل ، تربيها منذ الصغر على الشعور بالكرامة كما تعوّد الفتى على احترامها والنظر اليها كشبيلته وشريكته

وليس ذلك بكثير على امةٍ بلغت نساؤها من الرقيّ مالم تصل اليهِ نساء شعب آخر في هذا العصر — كما علت المرأة المصرية قديماً الى مرتبةٍ لم تدانها فيها امرأة في عصرها . ليس ذلك بكثير على امةٍ وضعت المرأة في مجالس النواب ودوائر الحكومة مطلقةً لها الحرية في السعي والجهاد، حتى غدت نهضة المرأة من أمتن الدعائم التي قامت عليها عظمة الامة الاميركية

فلئن كنتُ اول فتاة عُقد لها مثل هذا الاجتماع في هذه الجامعة وكنتُ اول فتاة وقفت لمثل هذا الاجتماع على هذا المنبر الجليل ، فكفتني الاولى هي إسداء الشكر باسم الفتاة الشرقية لاجل هذه التسوية الجميلة ، راجية ان يكون عدد الطالبات المستفيدات منها متزايداً عاماً بعد عام

ثم احيّي من هذه الجامعة هيئة الرآسة والادارة وجمهور الاساتذة الملقنين شبيبتنا حروف النور ، الناطقين فيها روح الاستقلال والاستقامة . احيي الهمّة التي بُذلت دواماً لاحياء اللغة العربية حتى علم الناس انّ من تخرّج في هذا الصرح العلميّ اتقن هذه اللغة واحسن التعبير بها كما فاز بالاستقلال الفكري والاتكال على النفس

***

وانتِ يا شبيبة بلادي التي لن تكذبي كرامة الاجيال الدراسية التي سبقتك هنا ، انت الرجاء الناضر ، والبلسم المنطّف جراح الماضي ، والغد البهيّ المتكوّن في قلب اليوم ، — سواء أكنت مسلمةً ، ام درزية أم يهودية أم مسيحيةً ،

توحّدي متدرّبةً على الحرية الفكرية وتعزيز الروابط القومية . توحّدي متدربة على التفاهم مع جميع الشعوب والاجناس لتتبادلي وإياهم نتائج الجهود ، لتعطيهم وتأخذي منهم . انت تعلمين ان لا مكان اليوم للخامل المتواني وان العالم والاوطان تطلب العامل الحاذق المخلص . شبيبة بلادي ، زهرة الامل الغالي ، ألا فاهتزّي شاعرةً بفبطة الشباب وغبطة الجمال ، وغبطة الذكاء وغبطة القوة . ألا فاهتزّي منتبطةً لان قومك يساير خطواتك مترقباً نجاحك . ألا استوحي كتب العلم ودروس الجهابذة ، الا استوحي احوال البشر وفيوض العبقرية ، الا استوحي الفرح والترح ، الفخر والمذلة ، والصداقة والمداوة ، واستوحي كذلك ضعفي الضعيف لتكوني ما عليك ان تكوني ، لتكوني انتِ انتِ ! فتبلغي اقصى مرتبة من الرفعة والتقدم

على جباهكم ، يا شبان بلادي ، ارى الآن انعكاس حضاراتنا القديمة ، وفي تيقظكم ارى تنبه شعوبنا الشرقية النائمة ، وفي نور عيونكم ارى ذكاء النوابغ وتوقّد الاجداد ، وهيبة الرجولة البادية في ملامحكم كثيرة الوعود للمستقبل . فاخرجوا من هنا عائدين الى العمل اليوميّ الدقيق ، اخرجوا من هنا سائرين في طريق العلى ! وهنيئاً للاوطان بمن نجح منكم فحقق الاماني ! هنيئاً لنا بمن تفوّق بينكم انهُ لرجل فينا عظيم ! انهُ عندنا لكولمبس جديد !

(المقتطف — وممّا يحسن ذكرهُ في هذا المقام ان في الجامعة الاميركية داراً فسيحة تسمّى وست هول West Hall تبرع بالانفاق على بنائها والد الرئيس الحالي يعقد في منتداها اجتماع كل يوم جمعة ويُدعى اليهِ كل كاتب او شاعر او ذي ميزة فكرية يمر في مدينة بيروت ليلقي فيهِ خطبة في موضوع يختارهُ افادةً للطلبة . ولما كانت الآنسة مي عازمة على العودة الى مصر مع والديها قبل يوم الجمعة عقد هذا الاجتماع لها يوم الثلاثاء ودعي اليهِ جمهور كبير من الطلبة القدماء وغيرهم من الفضلاء وهي اول فتاة دُعيت لمثل ذلك وللوقوف على ذلك المنبر . وقد كُتب الينا ان الحضور من الشرقيين سُرّوا بان اولى المدشنات لهُ كانت فتاة سورية)